أفكار غيرت العالم

٧

الإمام محمد عبده

رائد الإصلاح الدينى

بقلم :

د. منال القاضى

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

القاضى ، منال
الامام محمد عبده رائد الإصلاح الدينى / بقلم : منال القاضى
ط١ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠١٠
٢٨ ص ؛ ١٩,٥ سم . - (أفكار غيرت العالم ؛ ٧)
تدمك : ٧-٧٤١١-٠٢-٩٧٧-٩٧٨
١- المصلحون المصريون .
٢- الشيخ محمد عبده ، محمد عبده بن حسن خير الله ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥
أ - العنوان . ب- السلسلة .

ديوى ٩٢٢,١١٧

رقم الايداع ٤٢٣٠ / ٢٠١٠ ٣٠ / ٢٠٠٩ / ٧

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧- فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مَنْ هوَ الإمام محمد عبده؟

- وُلدَ عام ١٨٤٩ ونشأَ فى قريةِ محلة نصر.
- حفظ القرآنَ ثم سافر إلى طنطا لتعلّم تجْويد القرآن فى الجامع الأحمدى. حيثُ قضى أربع سنواتٍ ثم انتقل للدراسة فى الأزهر الشريف.
- نالَ شهادة العالمية عام ١٨٧٧.
- عملَ بالتدريسِ ورأس تحرير جريدة الوقائعِ المصريّة حتّى نفى من مصر عام ١٨٨٢.
- ذهب إلى باريس بدعوةٍ من جمَال الدينِ الأفغانى عام ١٨٨٣ وأنشأ معه جريدة العروَة الوثقى.
- عاد إلى مصر عام ١٨٨٨ حيثُ عمل بالقضاءِ.
- تُوُفى عام ١٩٠٥.

من أقوال الإمام محمد عبده:

«إنّ الرجلَ والمرأةَ مُتماثلان فِى الحقُوق وَالأعمال والشعورِ والعقلِ، والرجالُ الذينَ يحاولونَ بظُلمِ النساءِ أن يكونُوا سادةً فى بيوتهم إنمَا يلدُونَ عبيدًا لغيرِهم».

دارتْ عينَـا الصَّبى فـى أنحَاء الجَامع الأحمَـدى، تأمّل قليلًا الجدرانَ وَالأعمدةَ، ثمّ عَاد لتفحُّصِ وجُوه الطلّاب الجالسينَ مِنْ حَوْله، لا شـىءَ تعكسـهُ تلك الوجوهُ، كأنَّ أصحابهَا فى ملكُوتِ آخر، تنهّد «يا اللّه» تململَ فِى جِلسـتهِ، وسألَ نفسَهُ هلْ يشعرُ أحَدٌ بمَا يشـعرُ بهِ الآن، نظرَ مرةً أخرَى إلى أقرَانِه، كأنهُ يلتمسُ العونَ. كانُوا مشـغُولونَ عنهُ بمتابعَةِ الشيخِ ذِى اللحْيةِ البيضَاء وَالعينيْـنِ الغائرتيْـنِ والعمَامـةِ الكبيـرةِ. «ترَى هـلْ يفهمونَ ما يقولُ!!».

كانتْ عيُونهم مُثبته بغمُوضٍ عَلى الشـيخِ، الذِى تحشرَجَ صوْتهُ الآنَ مِنْ كثرةِ الكلامِ.

ضحـكَ محمَد عبده بينهُ وبينَ نفســهِ: «أراهنُ أنهُمْ لا يفهمونَ شيئًا ممَّا يقولُ».

سـعلَ الشيخُ وحَدجَهُ بنظرةٍ نافذةٍ، ارتبكَ محمد عبده، وهُئ لهُ لوهلةٍ أنّ الشيخَ ضبطهُ متلبسًا بأفكارٍ غيرِ لائقةٍ عنْ درسِه.

شعرَ محمد عبده برغبةٍ فى الفرارِ، ليتهُ يستطيعُ، ولكنَّ أباهُ لنْ يسمحَ لهُ بذلكَ.

كانتْ كلماتُ الأبِ ترنُّ فى أذنيهِ. «العلمَ.. العلمَ يا محمدُ هوَ الطَريقُ الذى يجبُ أنْ تسلكهُ، سأتدبرُ أمرَ سفركَ إلى الجَامع الأحمَدى بطنطَا كأخيك الشيخ مجَاهد».

زفرَ محمد عبده فى ضيقٍ، «وهَا قدْ جاءَ إلى الجَامع الأحمَدى فماذَا حدث؟».

سيجرِّبُ مرةً أُخرى إكرامًا لأبيهِ، ويحاولُ الانتبَاه. مرَّ الوقتُ، دونَ أنْ يتغيّر شىء، كانتِ الكلماتُ تشقُّ طريقهَا بصعُوبة إلى عقلهِ، فيشعرُ أنهَا تزيدهُ إظلامًا. «مَا هذَا؟، ألمْ يقلْ لهُ أبوهُ الكلمةُ نورٌ، لماذَا ينطفئُ عقلُه إذَنْ كلّمَا توغّل الشيخُ فِى الكلامِ. هلِ العيبُ فيهِ، لعلهُ لمْ يُخلق لطلبِ العلمِ».

استقرّت هذِه الفكرةُ داخِل رأسهِ. «نَعَمْ هوَ لمْ يُخلق لطلبِ العلمِ، لَا قِبلَ لهُ بكلِّ هذِه المشقّة».

انقضَى الدرسُ، قامَ الشيخُ متثَاقلًا ومنْ حولهِ الطلّاب. انسلّ محمد عبده وحيدًا، إلى الهواءِ الطّلق. أخذَ نفسًا عميقًا، وقضَى الوقتَ متجولًا فِى دُروبِ طنطا وهوَ يُفكر.

«مَاذَا أفعلُ؟ كيفَ أقنعُ والدِى بذلكَ؟ إذَا كانتْ هذه الطلاسمُ التِى استمعتُ إليهَا كلَّ يومٍ، هىَ العلمُ الذِى حاولَ تَرْغيبِى فيهِ، فلنْ أسلكَ طريقهُ أبدًا».

كانَ شيوخُ الجَامع الأحمَدِى يشعرونهُ بالعجْزِ. فشروحهُم مُعقّدة صعبَة، ولكنْ كيفَ يقنعُ أبَاهُ بذلكَ. سيقول لهُ. «لقدْ حاولتُ، حاولتُ بصدقٍ يَا والدِى أنْ أكونَ كمَا تُريد، ولكنِّى لَمْ أتمكّنَ، ولنْ أتمكنَ منْ ذلكَ ولوْ بعدَ دهْرٍ».

تخيَّل وقعُ كلماته عَلى أبيهِ، كأنهَا أنصَال حَادّة. ونظرَ إلى السمَاء ودعَا الله. «يا ربِّ ألْهمْنِى الصوابَ، ماذَا أفعلُ يا رب؟».

كانتِ النجومُ تتلألأُ فِى صَفاءٍ. وشعرَ أنّ نورًا مَا يغمرُ عقلهُ.

إنَّ أباهُ لمْ يجبرهُ عَلى شىءٍ قبلَ ذلكَ، لقدْ ربّاه ليكونَ رجلًا، وَمِنْ حقِّهِ أنْ يتخذَ قراراته المصيرية، فهوَ لمْ يجدْ نفسهُ فِى العلمِ، تلكَ مَشيئة الله، لقدْ بذلَ كلَّ مَا فِى وُسْعه، ولكنَّ عقلهُ مغلقٌ أمامَ شرُوحِ مَشَايخ الجَامعِ الأحمَدى. لقدْ خُلق للفلاحَة ولا عيبَ فِى ذلكَ.

اتخذَ قرارهُ، وقفلَ راجعًا إلى قريتهِ محلة نصْر.

○○○

انتحَى الشـيخُ عبده جانبًا، وبدَا عليهِ الهمُّ، اقتربَت منهُ زوجتهُ وسَألتهُ. «مَا بكَ يَا حَاج؟»

نظـرَ إليهَا ولـم يجبْهَا عَلى الفورِ ولكنهُ قالَ فـى النهايةِ: «ابننَا محمد يا حَاجّة».

انفرجَ وجهُ زوجتهِ وقالتْ: «بسْـم الله مَا شاءَ اللّه، وهلْ هناكَ مثـل محمدٍ فى عقلهِ وكمَاله، ثم إنهُ عَريس لمْ يكتملْ عَلى زواجهِ أسبوع».

قالَ الشـيخُ عبده بنبرةٍ عميقـةٍ: «لقدْ خذلنِى، تمنيتُ أنْ يغدُو عالمًا ولكنهُ يريدُ الاشتغالَ بالفلاحَة».

سـمعَا تصفيقًا بالخَارج وصوتًـا مألوفًا يقولُ: «يَـا أهلَ الدّار... يَا سَاتر».

قالَ الشيخُ عبده:

«أليسَ هذا صوتُ الشيخ درويش، والله ابن حلال جاءَ فى وقتهِ».

ارتدَى الشيخُ عبدهُ عباءتهُ وخرجَ للقاء ضَيفهِ.

«أهلا... أهلا... بالضيفِ العزِيز».

تصافحَا فى حرَارة ثمّ اصْطحبهُ الشيخُ عبده إلى قاعَة فسيحَةٍ.

التفتَ الشيخُ درويش حولهُ كأنهُ يبحثُ عنْ شيءٍ ثمّ قالَ:

«كيفَ حالُ عريسنَا؟».

علتِ الكآبةُ وجْه الشيخ عبده وقالَ:

«إيه يَا شـيخ درويش، لقدْ وضعْت يـدكَ على الجرْح، فمحمد سَبب همِّى وحَاله لا يعجبنِى».

استفهَم الشيخُ درويش فِى وقارٍ:

«محمد؟ وهلْ هناكَ مثل محمد فِى نباهته؟».

بادرهُ الشيخُ عبده كأنمَا أمسكَ بطرفِ الخيطِ.

«أنتَ اختبرتهُ بنفسكَ يا شيخ درويش مرّات. ألم تفعلْ؟».

أومَأ الشيخُ درويش، ثُم أجابَ:

«دُونَ شـكٍّ محمـد لديهِ منَ الذكاءِ وقوةِ العقـلِ مَا يجعلهُ منْ علمَاء المسلمينَ بإذنِ الله».

خبطَ الشـيخُ عبده كفّـا بكفّ وقالَ: «كيفَ يكـونُ هذَا؟ كيفَ يكـونُ هذَا؟ وهوَ مُصمم عَلى عدمِ اسـتكمَال دُروسـهِ فى الجامعِ الأحمَدى فِى طنطا».

قالَ الشيخُ درويش بوقارهِ المعهُود:

«تمهّـل عَليه يَا رجُـل، فمحمدُ معدنهُ نفيسٌ ولابـدّ أنْ يتغلّب معدنُهُ عَلى أهوَائه فِى النهايةِ، وَفاتحهُ فِى الأمرِ مرةً بعدَ مرّة، بإذن الله تكونُ الاستجابةُ، ولكنْ أينَ هوَ كَىْ أبارِكَ لهُ عَلى زواجهِ؟».

○○○

جلسَ الشيخُ عبده بفناءِ دارهِ وحاولَ أنْ يكتمَ حسرتهُ. لمْ يعجبهُ مَا شـاهدهُ اليومَ عقبَ صَلاة العصْر. كانَ محمدٌ منهمكًا فِى مُبارزةِ أحدِ أقرانهِ بالعصَا والشّباب من حولهِ يهللونَ.

توقفَ عنِ المبارزةِ حينَ لمحَ أَبَاهُ، الذى مضَى فِى طَرِيقه، وكأنهُ لمْ يلحظْ شـيئًا، ولكنّ محمدًا لمحَ الغضبَ عَلى وجههِ، فاسـتأذنَ الشبابَ وَتبعه. دخلَ عليه وقالَ: «السلامُ عليكمُ يا وَالدِى».

ردّ الشـيخُ عبـده بنبـرةٍ جَافّـة: «وعليكُم السـلام ورحمةُ الله وبركاتهُ».

ثُم أشـاحَ بوجههِ بعيدًا، وجرتْ أصابعهُ عَلى حبّات مسبحتهِ فِى عصبيّة ولكنهُ لمْ يطقْ وانفجرَ فِى وَلده.

«أهكـذَا؟ أهكذَا يا محمد تريدُ أنْ تكمل حياتكَ فِى عبثٍ ولهوٍ، بدلًا منْ أنْ تكدّ وتجتهدَ فِى طلبِ العلمِ؟».

اخترقهُ صوتُ والده وهزّه حَتّى الأعمَاق.

فاستمرَّ الأبُ يقول: «ألاَ تعلمُ أنّ منْ يسلكَ طريقَ علْمٍ، يُسهلُ الله لهُ طريقًا إلى الجنّة».

استعادَ محمدُ للحظاتٍ دروسَ الجامع الأحمَدى السقيمَة، ولكنهُ لمْ يشَأ مُناوأة وَالده فقدْ شعرَ أنّ حزنهُ عَظيم. خرجَت الكلماتُ منْ شفتيْه دونَ أنْ يدرِى: «أنا رهنُ إشارتكَ يا والدِى».

قالَ الشيخ عبده فى حزمٍ. «اسْتعِد إذَنْ للرَّحيلِ إلى طنطَا فِى الصّباحِ».

أومأَ محمد عبده فِى استسلامٍ. «أمركَ يا والدِى».

اختلسَ محمد عبده النظرَ إلى مرافقه فى السفرِ، ثُمّ نظرَ إلى الغيطانِ الممتدّةِ أمامهُ. كانَ الحر شديدًا، وحبّات العرَق تتلألأُ فوقَ جَبينه.

كانَ يشعرُ باليأسِ. ثمّ خطرَت لهُ فكرةٌ وهوَ عَلى مشَارفِ قريَةِ (كنيسة أورين) التى يقطنُ فيهَا أخوالُ أبيه. تمتمَ. «الشيخُ درويش». بدَا مقتنعًا بالفكرَة أكْثر كلّمَا مرّ الوقتُ. تململَ فوقَ ركُوبته، وَاسْتأذنَ مرَافقهُ قائلًا: «سَأزورُ بعضَ أقاربى هنَا، ثمّ ألحقُ بكَ فِى طنطَا».

لَمْ ينتظرْ جوابهُ وقادَ ركوبتهُ إلى حيثُ يريدُ. وَفورَ وصُولهِ، هشَّ الشيخُ درويش فِى وجههِ. وبعدَ أن استرَاحَ، بادرهُ فِى صبيحَة اليومِ التّالى قائلًا: «أريدُ منكَ أنْ تقرأَ لِى قَليلًا فِى هذَا الكتابِ».

تبرّمَ محمد وقَالَ: «لا طاقةَ لِى بالقراءةِ، وَالشّباب يدعُوننِى فِى الخارجِ منْ أجلِ الذهَابِ مَعَهم إلى النهرِ وَالسِّباحةِ».

ابتسمَ الشيخُ درويش وقالَ: «إنى أسألكَ معروفًا يا محمد، فالكتابُ كُتِب بخطٍّ مغْربى دقيق، وأنَا ضعيفُ البصرِ يَا بنى».

أمسكَ محمد بالكتابِ وقرأَ منهُ بضعَ سطُورٍ عَلى مَضَض، ثمّ استأذنَ الشيخَ درويش وَلَحقَ بشبابِ القريَة لِلَّهْو.

وَفِى اليومِ التَّالى واصلَ محمد القراءةَ، والشيخُ درويش يفسرُ لهُ معنَى مَا يقرَأُ فِى عَبارَاتٍ سهلةٍ بسيطةٍ. ويومًا بعدَ يوم، سَحبهُ الكتابُ إلى عَالمِه، فانصرفَ بكلِّ جَوَارحه للقراءةِ، ووضْع علامَاتٍ عَلى مَا يصعبُ مِنْ عبارَاتٍ كىْ يفسرهَا لهُ الشيخُ درويش.

شعرَ محمد بنفسهِ تحلِّق بعيدًا، بعدَ أَنْ قطعَ شوطًا فى القراءَةِ. وَأرادَ الاستزادةَ منْ تجَاربِ الشيخِ درويش، الذِى كانَ معروفًا بكثرةِ أسفارهِ وعلْمهِ وورَعهِ.

سألهُ:

«أريـدُ أنْ أَتقرّب أَكثر منَ اللهِ، هـلْ تدلُّنى عَلى وِرْد أقرأهُ بينَ الصّلواتِ؟».

ابتسـمَ الشـيخُ وربتَ عَلى كتفِ محمد عبده. «لَا أقرأُ سـوَى القرآنِ عقبَ كلِّ صَلاة، وأحاولُ تدبُّرِ آياته، وفهمهَا».

بُهتَ محمدُ فعَاد الشيخُ درويش يقولُ:

«الدينُ الإسلامىُّ هوَ السماحةُ كلّها، وهوَ دينُ سلُوك وأفعَال، فقدْ بُعِث الرسـولُ ليتممَ لنَا مكارمَ الأخلاقِ، وَلكنْ للأسفِ هناكَ يا محمد مَنْ يتمسـكُ بالمظاهرِ فقـطْ، فتجدهُ يُصلى ويصومُ، ولكنَّ سُـلوكَهُ وأفعَاله أبعدُ مَا تكونُ عنْ سُـلوك المسْـلم الحَق، فلا يرَاعى حقوقَ النـاسِ، وَيُؤذيهم، وَلَا يهتمُّ بنظافتـهِ وَنظافة بيته، وَلَا يُعامل زوجَته بالمودّة والرحمَة، ولا يجعلُ منْ نفسهِ قدوةً حسنةً لأبنائه الصِّغَار».

شعرَ محمد عبده أنّ طاقةً منْ نورٍ انفتحَت دَاخل قلبهِ وَعقله.

أعدَّ عُدته وقررَ الذهَاب إلى المسجدِ الأحمَدى لموَاصَلة دروسه.

مكثَ هنـاكَ أربعَ سـنواتٍ، بعدهَا انتقلَ للدراسَـةِ فِى الأزهرِ الشريفِ.

سَـار محمد عبده فِى أَزقّة القاهرةِ وشـوارعِهَا، هلْ هوَ حُلْم أَوْ حَقيقة؟ لقدِ انتظمَ أخيرًا فِى الدراسَة دَاخِل أروقةِ الأَزْهرِ الشريفِ. سألَ نَفسَه: «مَاذا بَعْد؟».

ابتسمَ «وهلْ بعدَ هذَا أحلَام؟».

كانَ يعـودُ إلى قريته محَلة نصْر فِى نهايـةِ كلِّ عام، فيلحَق به الشـيخُ درويشُ وَيسألهُ «هلْ درستَ المنطقَ؟ هلْ عرفتَ شيئًا منَ الرياضيّات والفلسفَةِ؟».

يُجِيب محمد فِى حيْرةٍ:

«لاَ.. هذهِ العلُوم لا تدرّسُ فى الأزهرِ الشريف».

يهشُّ الشـيخُ درويشُ، ويقولُ لهُ فِى ليـنٍ: «العلمُ لاَ مكانَ لهُ، ولا يقتصرُ عَلى ما تدرسـهُ فِى الأزهرِ الشريفِ، لابدّ أَنْ تبحثَ عنِ المعرفةِ أينمَا كَانت، إنهَا سلاحُكَ يَا محمد ضدَّ الجهلِ وَالخُرَافَة».

فكّر محمد «إذَنْ فالمعرفةُ طريقٌ لا نهَائى، ولكنْ منْ أينَ يبدأُ؟، لقدْ تصـوّر أنّ ذهابهُ إلـى الأزهرِ هو الكمَال، ولكـنّ أحاديثهُ معَ الشـيخِ درويشِ جعلتهُ يدركُ أنهَا مجرّدَ بدَايـةٍ، كيفَ يحصّلُ عَلى مَا ينقصُهُ منَ المعلُوماتِ والمعرفةِ؟».

صارَ محمد عبده شـغوفًا بالمعَارف المختلفة التى لا تدرّسُ فى الأزهرِ الشريف، وصَار يقرأُ ويستوعبُ كلَّ ما يصلُ إليه منهَا.

وقدْ جعَلهُ هذَا واسعَ الرؤيَا وشعرَ بالأسف لحَال الأزهَرِ الشريف. وأرجعَ تخلفَ الأمة الإسـلاميّة إلى تشبُّث طُلابه وشيوخه بالتقليد، لَا بالتجْديـد، وجَهْلهم بعلُوم العصْر، وإمعَانهم فى إظهَار الخلَافات بينَهُم بدلًا منْ توحيد الكلمَة.

أسـرَّ بهمُومه ذاتَ يوم إلى صديقٍ شَامى، كانَ أحدُ المجَاورينَ فى الأزهرِ الشريف. فسألهُ «هلْ حضرتَ دروسَ السيد جمَال الدين الأفغانى؟».

هزّ محمد عبدهُ رأسهُ نافيًا.

رَبَـتَ الصديقُ عَلى كتفـه «يجبُ أنْ تحضرهَا، فالسـيدُ جمالُ الدين الأفغانى مهمومًا بحَال الأمة الإسـلاميّة، وقدْ نذرَ نفسَـه منْ أجلِ رفعَة شأنهَا، وهوَ يرَى مَا تراهُ منْ ضرُورة إصْلاح التعليم الدِّينى وربْط الدينِ بالدنيَا وَإعمَال العقلِ وفتْح بَابِ الاجتهَاد، لقدْ حضرْتُ لهُ أحدَ دروسَه فكانَ يتكلمُ عَن ابنِ سينَا، فى عبارَات سَهْلة بسيطَة تخترقُ الوجْدانَ».

شـعرَ محمد عبده بشـوْقٍ شَـدِيد للقاءِ جمَال الدينِ الأفغانِى.
فقالَ لهُ صاحبهُ: «أنا فِى طرِيقى إليه الآنَ هَلْ تُرَافقنى؟».
تبعهُ محمد عبده، ودَاخلهُ شعورٌ بالرهبَة والسعَادةِ.

ooo

كانَ لقاءُ محمد عبده بجمَال الدينِ الأفغَانى، لهُ وقْع الزلزَال فِى حياتــهِ فقدْ بهرهُ جمالُ الدين الأفغانى بســعَة اطلاعه، ونقاءِ ذهنه وقوة حُجته، وعُمقه وشروحهِ الخَالية منَ التعقيدِ، فتلقىَّ عنهُ بعضَ العلُوم الرياضيّةِ وَالفلسَــفية، وشــجّعه جمالُ الدينِ الأفغَانى عَلى الاهتمَام بعلْم المنطِق.

كانَ جمالُ الدينِ الأفغَانى يُلقى دروسَــهُ فِــى بيتهِ بخَان الخَليلى، وكانَ يذهبُ إلى الأزهرِ الشريفِ زائرًا، ولكنهُ لمْ يقمْ بالتدريسِ فيهِ.

وَكانَ الكثيرُ منْ شيوخِ الأزهرِ وطُلابه يتخوّفونَ منْ مَنهج جمَال الدينِ الأفغانِى ودروسهِ التِى كانتْ تختلفُ كلّ الاختلافِ عنِ الطرُق السَّــائدةِ فِى ذلكَ الوقتِ فى الأزهرِ. ويتهمُونهُ بأبشَــع الاتهامَات ويدَّعُونَ أنّ نشرهُ للعلُوم الحديثةِ ومحَاولةَ التعريفِ بهَا قدْ يزعْزعُ العقيدةَ. وَلكنّ جمالَ الدينِ الأفغانِى كانَ ماضٍ فِى طَريقه، وَيعلمُ

أنّ جوهرَ الإسْلام يدعُو إلى التعلّم المستمرِّ، وَإعمالِ العَقل فِى كلِّ مَا هوَ نافعٌ.

كانَ الشيخُ محمد عبده يعرفُ أَنّ هناكَ اختلافاتٌ بينهُ وبينَ أُستاذِه، فجمالُ الدينِ الأفغْانِى نشأَ فِى بيئةٍ غَيْر مُستقرةٍ سياسيًّا، وكانتِ المؤمراتُ تُحاك مِنْ حوله، وهوَ أحيانًا يتقلّد أرفعَ المناصب، وفِى أحوَال أُخرى يجدُ نفسهُ مهددًا بلَا سندٍ منْ منصبٍ أَوْ سُلطان. وقدْ كانَ يرَى أنّ إصْلاحَ أحوالِ الأمةِ الإسلاميةِ تكونُ فِى صَلَاح حكامهَا، وأنَّ العملَ بالسياسَةِ لَا غِنَى عنهُ منْ أَجْلِ التغيير.

أمَّا محمد عبده فقدْ نشأَ فِى بيئةٍ ريفيّةٍ مُستقرةٍ، وكانتْ نفسُه تَعَافُ العملَ فِى السياسَة. وكانَ يرَى أنّ الإصلاحَ يجبُ أنْ يبدأَ منَ التعليم. وَأنَّ أَىَّ تغييرٍ لَا يتأتىَّ إلّا بتهذيبِ العقولِ، وتخليصِهَا منَ الخرَافاتِ وَتعريفهَا بصَحيح الدينِ.

ورغمَ اختلافِ الرجليْن فقدِ التقيَا عندَ هدفٍ واحدٍ وَهو الرّغبةُ الأكيدةُ وَالحقيقيَّةُ فِى إحدَاثِ نهضَةٍ فِى الأمةِ الإسْلاميّة. وشجعهُ جمالُ الدين الأفغَانى عَلى الكتابةِ فِى الصحفِ المختلفةِ، لأنهُ وجدَ فِى تلميذِه حلاوةَ العبارَة وسرعَة البديهةِ، والتفكيرِ النقدِىِّ الذِى

يهدفُ إلى إحدَاث تغيير فى المجتمَع، فكتبَ محمدُ عبده فى عدّةِ صُحف منهَا الأهرَام والوقائعُ المصريّة.

○○○

تخرّجَ الإمامُ محمدُ عبده منَ الأَزهرِ ونالَ شـهادةَ العالميّة عام ١٨٧٧.

وكانَ ناظـرُ المعارفِ فى ذلكَ الوقـتِ على مُبَارك، وكانَ قدْ قرأَ مقالاتِ الشـيخ محمـد عبده وَأُعجب بأُسـلُوبه. اسـتدعاهُ وكلفهُ بصيَاغة رسَـالةٍ عَنِ (الجسَد وَالرُّوح) كانَ قدْ قامَ بترجمتهَا، وتفانَى الإمـامُ محمدُ عبـده، ليتمَّ تلكَ المهمَّة عَلى أكمـلِ وجْهٍ، فقدْ كانَ بدورهِ مُعجبًا بعَلى مُبَارك باشا ويعدُّهُ منْ مُستنيرِى الأمةِ.

وقدْ زادَ ذلكَ منَ إقتناعِ علَى مُبَارك بقدرَاتِ محمد عبده.

استدعَاه لمقَابلته وقالَ لهُ: «إنَّ لكَ أسلُوبًا بليغًا يا شيخَ محمد».

ابتسمَ محمدُ عبده فِى سرورٍ وَقالَ: «شكرًا يَا باشَا».

سألهُ على مُبَارك: «مَا هىَ خُططكَ المسْتقبليّة؟».

بادرهُ محمدُ عبده قائلًا: «أرَى أنَّ التعليمَ هوَ الركيزةُ التى تنهضُ عَليه الأممُ، فلو ارتقينَا بهِ، فَسَنرتقى بالأخلَاقِ وَالأذوَاقِ، ويمكننَا أنْ نقيمَ حضارةً تُضَاهِى الحضارةَ الإسلاميّة العظيمَة».

وافقهُ عَلى مبارك باشـا وقالَ: «معَك حَقّ يا شـيخ محمد، معكَ كلّ الحَق، ولهذَا سَـأكلفكَ بمهمّةٍ جليلةٍ، ذاتِ أهميّة خاصّة عندِى وهىَ تعليمُ أبنائِى».

قالَ الشيخُ محمد عبده: «بكلِّ سرورٍ يَا باشَا».

واصلَ محمد عبده تدريسَـهُ فِى الأزهر الشريفِ وكانتْ دروسُهُ فِـى البلاغَـة لهَا الأَثَـر الكَبير عَلـى كثيرينَ مثـل مُصطفى لطْفى المنفلُوطى والشـيخ عبد الرازق، بلْ لقد أفادَ منهَا العدِيد منْ غيرِ الأزهريِّينَ مثل أحمد تيمور كمَا كانَ يرتادهَا العديدُ منَ القضَاة.

وَفِى عام ١٨٧٨ عُين مدرسًـا فِى دَار العلُوم ومدرسَـة الألسُن، وعُنِىَ بتربيةِ عقُول تلاميذهِ، فقامَ بتدريسِ مُقدمة ابن خلدون، كىْ يوضحَ لهم كيـفَ تنهضُ الأممُ ولماذَا تتهاوَى، وكانَ يربطُ مَا يقولهُ بأحوَال مِصْر والمسْـلمينَ المعاصرينَ وَيُبْدى رَأيهُ ويشجعُ تلاميذهُ عَلى المناقشةِ وَإبدَاء آرَائهم.

وكانَ فِى تلكَ الأحيانِ يترددُ عَلى اُسـتاذهِ الأُسـتَاذ جمَال الدِّين الأفغَانِـى وَذَات يوم منْ عَام ١٨٧٩ انتحَى به السـيدُ جمَال الدين الأفغانى وقالَ لهُ بشُمُوخهِ المعْهُودِ:

«لقدْ أصدرَ الخديوى فرمَانًا بخُروجى منْ مصْر».

اخترقتِ المفاجَأة عَقلَ محمد عبده ولمْ يَدْرِ مَاذَا يقولُ.

فضحكَ جمالُ الدين الأفغانى وقالَ:

«لا تجزَعْ يا شيخ محمد، سأغادرُ مصرَ ولكنَّ أفكَارِى لنْ تغادرهَا، أُوصيكَ بمصْرَ خيرًا يا شـيخ محمد، فمهمتكَ جَليلة وَصعْبة، ولكنهَا تسـتحقُّ العناءَ، مهمتكَ أنْ تبرزَ جوهرَ الإسـلام السمْحِ، وتستنْهِضَ العقولَ التِى تعيدُ مجدَ المسلمينَ بإذنِ الله».

○○○

كانتْ دروسُ الإمام محمد عبده فِى الأزهرِ وفِى مدرسَة الألسنِ وَدار العلُوم ذاتَ طَابع تنويـرِى، وتحملُ فِى طياتهَا بذورَ التجديدِ وَالتغييـرِ، وَهذَا لمْ يعجبْ المتزمتينَ، المتشـبثينَ بقشُـورِ الدينِ، فسـعَوْا- بالوشـاية- لدَى الخِديوى حتَّى عزلهُ، وألزمـهُ أنْ لا يبرحَ قريتهُ محلّة نصْرِ، ولكنَّ الخديوى سُرعَان مَا عفَا عنهُ، ليتقلّدَ محمد عبده مسـئوليَّة تحْرِير جَريـدَة الوقَائع المصْريّـة، وهىَ الجريدةُ الرسـميّةُ للدولةِ فى ذلكَ الوقتِ. كانتْ تلكَ مهمّة مُحَببة إلى نفْس الإمام، فقدْ كانَ يَرَى الصحفَ منابرَ، يمكنُ منْ خلالهَا طرْح الأفكَار المُستنيرةِ وإحداثِ تغْيِيرٍ فِى المجْتمَع.

ضُمَّ إلى أُسرةِ تحْرير الوقَائع المصريّةِ كُتّابًا عُرِفوا بالبلاغَة وسلَامةِ الرَّأى أمثال سعد زغلول والهلْبَاوى.

وَانتقلتِ الوقائعُ المصريّةُ فِى عهدهِ منْ حالٍ إلى حَالٍ. فلمْ تعدْ الجريدةُ نفسهَا التى أنشأها محمد على باشا عام ١٨٢٨ وجعلهَا باللغتيْنِ التركيَة وَالعربية. فقدْ نقلهَا الإمامُ محمدُ عبده نقلةً شاسعةً منْ حيثُ اللغة والموضوعَات، وكَانت مَقَالَاتهُ خاصّة بمثابةِ دُرُوس تهدفُ إلى الإصْلاحِ. فانتقَد الرشوةَ ودعَا إلى الحريّة وسيَادةِ القانُون، وحثَّ عَلى ضرورَةِ تَطْهير الإسلامِ منَ البدعِ وَالخرَافات.

وألزمَ الهيئاتِ وَالمصَالح الحكوميّة بإمدَاد الجريدةِ بمَا يُستجدُّ بهَا منْ قرارَاتٍ ومَا أَنجزتهُ منْ أعمَالٍ. وَلمْ تكن الوقائعُ المصريّةُ فِى عهدهِ مُجَرّد نَاقلة للأفكارِ، بلْ دأبَ الإمام محمد عبده عَلى إظهَار النواقصِ فِى أعمَالِ الحكُومَة، ونقدهَا نقدًا بنَّاءً، وَالإشارةُ إلى الحلُولِ المقترحَة. ممّا جعلَ الوقائعَ المصريَّة لهَا صفةُ الرقيبِ عَلى مُختلفِ المصَالح الحكُوميّة، وهذَا بالتأكيدِ ارْتقَى بأداءِ العَاملينَ هناكَ.

وأحدثَ ما فعلهُ الإمام محمد عبده نهضةً صحفيةً، فقامتِ الصحفُ المعاصرةُ بتطويرِ سياستهَا.

استمرَّ محمدُ عبده رئيسًا لتحريرِ الوقَائع المصريةِ حتَّى قامتِ الثورةُ العرابيةُ عام ١٩٨٢. وقدْ كانَ الإمامُ محمد عبده بطبيعتهِ يعافُ السياسةَ، كانتْ تُؤرِّقه المظالمُ الكثيرةُ التى تحيطُ بالشعبِ المصرىِّ، ولا يعجبهُ أنْ تقتصرَ المناصبُ العليَا عَلى الأجانبِ بينمَا يُحرمُ أهلُ البلدِ المصريينَ منهَا، ليتمتّعَ الغربَاءُ بخيرِ بلادهم، ولكنهُ معَ ذلكَ رَأى أنَّ الإصلاحَ يجبُ أنْ يكونَ تدريجيًّا منْ خلَالِ الاهتمَام بالتربيةِ والتعليمِ، وليسَ منْ خلالِ الثوراتِ.

ولكنَّ موقفهُ هذَا تغيرَّ حينَ دعَا الخديوى توفيق الأسطولَ الإنجليزىَّ لمسَاعدتهِ عَلى التغلُّبِ عَلى عُرَابى وَإخوانهِ منَ الوطنيينَ.

حينذاكَ وضعَ محمدُ عبده يدهُ فِى يدِ العرابيينَ، واتَّهم الخديوى بالخيانَةِ وَالفسَاد، ودعَا الشعبَ المصرىَّ للانضمَام للثورةِ العرَابيّة والذّوْدِ عنِ الوطنِ ضدَّ الاحتلَال الوشيكِ.

ولكنَّ النهايةَ كانتْ مريرَة فقدْ بَدأَ الاحتلالُ الانجليزىُّ فِى مصرَ عام ١٨٨٢، واستمرَّ أكثرَ منْ سبعينَ عامًا أىْ حتَّى عام ١٩٥٢، وقدْ دفعَ إمامنَا ثمنَ مسَاندتهِ للعرَابيينَ فنُفِىَ إلى بَيْرُوت.

تنهّدَ الشـيخُ محمدُ عبده «إيه يَا وطَنى» وَشواطئ مصْر تبتعدُ وَالباخرةُ تشقُّ به عُباب البحْر نحوَ مَنفاه. حاولَ التهوينَ عنْ نفسه وقالَ: «لنْ تتوقفَ رسَـالتى، سأسـتمرُّ فِى مناصرَة الإسلام، وَإظهارِ جَوْهره السّمْح فِى كلِّ مكَان أذهبُ إليه».

مكثَ فِى بيروت شهورًا، تحوّلت فيهَا دارهُ إلى مدرسَة، يقصدهَا طـلابُ المعرفةِ ونبهَاء الشـامِ، وَألقَى دروسًـا فِـى الجَامع الكبيرِ وجَامع الباشُـورَة. وَلكنْ فِى داخلهِ شـعورٌ أنَّ هناكَ شيئًا كبيرًا آخرَ فِى انتظَاره، وتأكّدت ظنونُهُ حينَ وصَلتهُ رسـالةٌ منْ استاذهِ السيد جمالُ الدين الأفغَانـى، يدعوهُ فيهَا للحضُور إلى بَاريس. لمْ ينتظرْ وَاستقلَّ الباخرةَ إلى هناكَ مُلبيا نداءَ أُستاذهِ.

قضَى أيامَ السـفرِ فوقَ الباخرةِ المتجهَة إلى فرنسَـا، فِى الدرسِ وَالقراءةِ والتأمُّل وذاتَ يوم استوقفهُ مشهدٌ. فقدْ كانتْ هناكَ مُربيةٌ إفرنجيّةٌ تَنْهَى فتاةً صغيرةً عنْ قطفِ زهرَة، مُبينة لهَا أنهَا بذلكَ تتعدّى عَلى حقِّ ركّاب السفينةِ فِى الاسْتمتاعِ بالزهرَة الجميلةِ مثلهَا.

تأثرَ محمدُ عبده وفكّر «إنَّ ما صنعَ الحضارةَ الأُوروبيّةَ المعاصرةَ هوَ تَربيةُ السـلُوكِ عَلى مَا يجبُ أَنْ يكونَ وَتعْليم الصِّغارِ الحقُوق وَالواجبَات».

ثمّ عادَ يخاطبُ نفسهُ: «إنَّ الإسلامَ دينٌ عظيمٌ ولوْ تغلغلتْ تعاليمُهُ فِى نفوسِ المسْلمينَ وَأَخْلاقهم، فلَا شكَّ أنَّ ذلكَ سوفَ يُثمر حضارةً عظيمةً، ألمْ يُؤلفْ بينَ قلوبِ العربِ وقدْ كانُوا قبلهُ بضعَ قبائلَ مُتناحرةً يتخطَّفُهم الناسُ؟».

أخذَ يفكرُ فِى شَاغله الأزلىِّ، كيفَ يتحققُ ذلكَ؟، كيفَ ينبذُ المسلمونَ خلَافَاتهم، ويلتفتُونَ إلى جوهرِ دِينهم العظِيم، ويعملونَ بتعاليمِهِ ويعرفونَ أنهُ دينُ عملٍ وعلمٍ؟... كيفَ؟؟؟!

○○○

استقبلَ السيدُ جمالُ الدين الأفغانى تلميذهُ فِى حَفاوة، واصطحبهُ إلى محلِّ إقامتهِ فى الحىِّ اللاَّتينى. وبعدَ أن اسْتقرَّ فِى إقامتهِ، أخذهُ فِى جولةٍ فِى أنحَاء بَاريس وَتجاذبَا أطرافَ الحَديثِ.

قالَ السيدُ جمالُ الدين الأفغانى:

«حالُ المسلمينَ لا يسرُّ كمَا ترَى يَا شيخ محمد، ولذلكَ فكّرتُ أَنْ أَجمعَ نبهاءَ الأمةِ الإسلاميةِ منْ أجلِ فعْل شىء».

أنصتَ الشيخُ محمدُ عبده إلى أستاذهِ، فقدْ كانَ يتكلّمُ بمَكنُونِ صدْرِهِ. فعادَ جمالُ الدينِ الأفغانى يقولُ:

«لقدْ قمتُ بتشكيلِ جماعةِ العروةِ الوُثقى كمَا تعرفُ، وهدفهَا الأولُ هو إيقاظُ المسلمينَ منْ سُبَاتِهم، ويجبُ أنْ تفعلَ ذلكَ بكلِّ طريقةٍ، وَالكلمةُ الصادقةُ هِى سَلاحٌ لَا غبارَ عليْهِ، لذَا ستصدرُ الجماعةُ صحيفةً اسمهَا العروةَ الوثقَى».

كانَ الشيخُ محمدُ عبده عَلى علمٍ بجماعَة العروَة الوثقَى، وقد انضمَّ إليهَا فورَ وُصوله إلى بَاريس، وأقسمَ القسمَ الخاصَّ بهَا والذِى يلزمُ مَنْ ينضمُّ إليهَا بالإخلاصِ وَالوفاءِ والعملِ لصَالح الأمَّة الإسْلامية.

صدرَ العددُ الأولُ منْ جريدةِ العروَة الوثقَى وكانَ جمالُ الدينِ الأفغانِى هو رئيسُ سياستهَا ومحمدُ عبده هو رئيسُ تحريرهَا.

وكانتْ تُوزع مجانًا فِى مُختلف أنحَاء الأمةِ الإسلاميةِ، وقد استُقبلتْ فِى فرنسَا استقبالًا حسنًا؛ ولكنَّ الإنجليزَ وَجَدوا فيهَا خطرًا كبيرًا، واتخذُوا التدابيرَ لمحَاربة الجريدةِ الوليدةِ، فحالُوا دونَ وصولهَا إلى الهند، وَأوْعزُوا إلى السلطاتِ المصْريّة كىْ تصدرَ قرارًا بتغريم كلِّ مَنْ تُوجدُ لديهِ الصَّحيفة مبلغَ خمسَة جنيهاتٍ، وهوَ مبلغٌ مهُولٌ فِى ذَلكَ الوقتِ.

وَأثنـاءَ وجُـوده فِى باريـس كانَ محمدُ عبده خيـرَ مدَافع عنْ حقِّ مصْرَ فِى نيلِ اسـتقلالهَا منَ الانجليز، ومنْ أجلِ توْضِيح وجهَة نظرِه لبَّى دعوةَ الكاتبِ الإنجليزى «بلنت» وكانَ صديقًا للمصْريينَ مـن أجْل زيَارة انجلترَا ووجدهَا محمدُ عبدهُ فرصةً لشـرْح القضيّة المصريّة فِى عقْر دارِ المحْتلِّ، وتوْضِيح حَقيقة الإسلَام والمسْلمينَ. وَأجرَى بالفعْل عدةَ أحَاديث معَ الصحفِ البريطانيةِ عكسَـت هَذِه المعَانى. وبعـدَ عودتهِ منْ تلكَ الرحلةِ بقليلٍ توقّف صدُورُ جريدةِ العـروَة الوثقَى بعدَ إصدارِ ثمَانية عشـرَ عـددًا منهَا. ليعودَ محمدُ عبده مرةً أُخْرَى إلى بيروت.

واصلَ محمدُ عبده رحلةَ كفاحهِ فى بيروت، فدرسَ فِى المدرسَة السُّـلطانيةِ، وأدخـلَ العديدَ منَ التعديلاتِ فـى مناهجهَا، فأضَاف التوحيـدَ، التاريخَ الإسـلامىّ، البلاغـةَ. كمَا واصلَ كتابـةَ المقالاتِ التنويريّةِ فِى الصحفِ الشاميّة. وأسسَ جمعيةً للتقريبِ بينَ الإسلام وَالنصْرانيةَ وقضَى هناكَ سـنوَات قبلْ أنَ يعودَ إلى مصرَ عام ١٨٨٨ إثرِ تدخُّلِ بعْضِ الشخصيّات البارزَةِ لدَى الخِديوى.

وَبعدَ عودةِ محمد عبـده إلى مصرَ وجدَ الحالَ غيرَ الحالِ. كانَ الإنجليزُ يسـيطرونَ عَلـى المصَالح الحُكُومية وكلّ شـئونِ الدوْلة. تمنَّى محمدُ عبده أنْ يعملَ بالتدريسِ. كانَ مازالَ عَلى رأيهِ أنَّ نكبةَ الاحتلالِ سـببهَا الجهْل، وعَدَم إلمَامِ المسلمينَ بِالتعَاليمِ الصَّحيحةِ لدينهِم، ولكنهُ عُينَ قاضيًا.

شـعرَ محمد عبده بالأسَى، فالقضاءُ مهنةٌ جليلةٌ ولكنهَا لا تتفقُ معَ ميولهِ وَرسـالتهِ فِى الحيَـاة، ومعَ ذلكَ وُفق أشـدّ التوفيق فِى مهنتهِ، ورفعَ المظالمَ عَنْ كثيرٍ منَ البسَطَاء، كمَا قامَ بتعلُّم الفرنسيّة وهوَ فِـى الأَربعينَات كَىْ يتمَكـنَ منْ مطالعةِ القانُون الفرنسـى. وجعلـهُ عملهُ كقَاضٍ يـدركُ أنَّ الانجليزَ وإن كانُـوا وضعُوا أيديهُم عَلى كلِّ شـىءٍ، ولكنْ لَا سلطةَ لهُم عَلى الأزهر الشريفِ وَالأوقافِ والمحاكمِ الشـرعيةِ. ولذلكَ فإصلاحُ هذه الأمَاكن الثلاثةِ يمكنُ أنْ يكونَ بدايةَ نهضَـة للأمّة. وعرضَ رأيهُ عَلى الخديوِى عبّاس حلْمِى، فأبدَى اسـتعدادًا للإصْلاحِ فِى أول عَهْده، ثمَّ مَا لبثَ أنْ خافَ عَلى سُـلطانه وَتراجَع. ولكنَّ هذَا لمْ يفتّ منْ عـزْم محمد عبده، فظلَّ ينشرُ أفكارهُ التنويريّةَ منْ خلالِ مَقالاتهِ وكُتبه.

كانَ كثيرًا مَا يجلسُ إلى تلميذيْهِ سعد زغلول وَقاسِم أَمين ويدورُ بينهُم نقاشٌ جَادٌّ يبدأهُ الشيخُ محمدُ عبده قائلًا:

«المرأةُ الحرةُ تنجبُ لزوجهَا أحـرارًا، أمَّا إذَا تعاملَ الزوجُ معهَا عَلى أنهَا مجردُ جَارية لا تفقهُ منْ أمور الدنيَا شيئًا، فماذَا تتوقّعُون؟! كيـفَ يمكنُ لتلكَ المـرأة أنْ تلقّنَ أبناءَهَا معَانـى جَليلةً تحتاجهَا أمتنَا مثل الحريّة والكرامَة، إنَّ تعليمَ المرأةِ يعْنِى إعدادَ أمةٍ جديرةٍ بالاسْتقلالِ عَنِ الإنجليز وَمَنْ شابهَهُم».

يُومئُ سـعدُ زغلول وَقاسـم أمين وَيُبادرهُ قاسمُ أمين قائلًا هذَا مَا حاولتُ إيضَاحه فِى كتابِى المرأةُ الجديدةُ.

يقولُ محمد عبده: «الإسـلامُ كرّمَ المرأةَ ومنحهَا حقوقًا مسَاويةً للرجُل، لعلكَ يا سعدُ تدركُ الواقعةَ التِى حدثتْ مُؤخرًا».

يلتفت إليه سعدُ زغلول ويقولُ: «تقصدُ يا مولَانا رفْض شركةُ قناةِ السويسِ أَنْ تبيعَ سيدةً مصريّةً أسهمهَا دونَ مُوَافقة زوجهَا!!».

يُومئُ محمد عبده «أجلْ أجلْ، وهذَا أمرٌ يقرهُ القانونُ الفرنْسى، الإسلامُ سبقَ الغربَ فِى تكريمِ المرأةِ فجعلَ لها ذمةً ماليةً منفصلةً عَنْ زوجهَا».

ينتقلُ محمدُ عبده بتلاميذهِ إلى موضُوع آخرَ فيقولُ:

«كنتـمْ تتحدثُونَ عنِ الاسـتقلالِ، كيفَ يكونُ هـذَا دونَ نهضَةٍ علميّةٍ حقيقيةٍ لابدَّ منْ إنشاءِ جَامعَةٍ أهليّةٍ مصْريّةٍ».

ورغمَ أنَّ هناكَ مَنْ ينسـبُ فكرةَ إنشـاءِ الجامعَة المصريَّةِ إلى جورجى زيدان ومصطفى كامل، ولكنهَا لمْ تكتسبْ قوةً إلَّا بعدَ أن تبناهَا محمد عبده وتلاميذه.

فقـامَ تلميذاهُ سـعد زغلول وقاسـم أمين بنقْل فكـرةِ الجامعَة الأهليةِ إلى حَيِّز التنفيذِ وأُقيم الاجتماعُ الأولُ فِى منزلِ سعد زغلول عـام ١٩٠٦، حيثُ دعَـا المجتمعونَ إلى الاكتتـابِ العَام لتبدأَ أولُ الخطوَات الإيجَابيةِ القويّةِ منْ أجْلِ تحْقيق حُلْمِ الجامعَة المصْريَّة.

○○○

تُوُفـى محمـدُ عبده عـام ١٩٠٥ فِـى الإسـكندريةِ، ودُفنَ فِى القاهرةِ، وتمْضِى السنواتُ ويبقَى محمدُ عبده شخصيةً مضِيئةً فِى تاريخِ مصْرَ وَالأمّةِ العربية.